تعليق على بحث
المستعمرات الالمانية في فلسطين

للدكتور عبد اللطيف الطيباوي

مقالة الدكتور علي محافظة عن هذا الموضوع في العدد المزدوج (السنة الثالثة) ص ٤٦ ، وما يليها ، تستحق الدرس وهو يستحق الثناء لكتابتها ، فهي تكاد تكون الوحيدة التي تناولت الموضوع في اللغة العربية . وقد راجعتها على ضوء ما كتبتُه عن تلك المستعمرات في مؤلفاتي باللغة الانكليزية ، ووضعتُ في أثناء المراجعة ملاحظات على هوامش الصفحات ، أذكر بعضها فيما يلي :

جاء في الفقرة الاولى من المقالة ان من اغراض كاتبها معالجة « الدوافع الدينية والسياسية والاقتصادية التي كانت وراء انشاء هذه المستعمرات » . فاستوقفني ذلك لعلمي ان انشاءها كان دافعه دينياً محضاً ، ولم يَزُلْ استغرابي إلاّ بعد اكمال قراءة المقالة ، فلم اجد فيها بحثاً لدوافع سياسية او اقتصادية .

وكذلك استغربت مقدمة في نحو اربع صفحات ، مستمدة من مصادر ثانوية ، تشير الى بعض المشاريع لإعادة اليهود الى فلسطين ، إذْ لم ار لهذا من صلة مباشرة مع رغبة طائفة نصرانية المانية في الهجرة الى فلسطين انتظاراً لعودة السيد المسيح . ولكني حقّقْتُ ما ذكره الكاتب عن تأسيس القنصلية البريطانية في القدس سنة ١٨٣٨ ، وخاصةً قوله ان وزارة الخارجية امرت القنصل « ببسط حمايته على كافة

اليهود المقيمين في فلسطين » . وسبب التحقيق ان الكاتب نسب ذلك إليَّ اعتمادا على الصفحة ٣٣ من كتابي باللغة الانكليزية « المصالح البريطانية في فلسطين : ١٨٠٠ ــ ١٩٠١ » (١) . ولكن نص الأمر الذي اثبته بحروفه لا ينطبق على ما نسبه الكاتب إليَّ ، فلا ذكر في النص لقوله : « كافة اليهود المقيمين في فلسطين » . اما قوله « بسط حمايته » فهو اقوى بكثير من الأصل الانكليزي الذي معناه « تسهيل الحصول على الحماية » "to afford protection"

اما مقدمة المقالة التي لها في رايي صلة مباشرة بموضوعها فتبدا بعد ذلك ، عند ذكر اقتراح فُوْن مُولْتِكي في سنة ١٨٤١ إقامة دولة نصرانية في فلسطين تحت رئاسة امير الماني . ومرة اخرى نسب الكاتب إليَّ ما لم اقُلْه على الصفحتين ٤٤ ــ ٤٥ من كتابي المذكور . فلم اقل ان فرْدْرِك وِلْيم الرابع ملك بروسيا وافق او لم يوافق على اقتراح مُولتِكي . والذي قلته ان الملك اراد ، لأسباب دينية محضة ، انشاء أُسْقُفية بروسية ــ بريطانية في القدس . وقد امكن اكتشاف هذين المثلين على طريقة الكاتب في النقل لسهولة مقابلة المنقول مع الأصل في مكتبتي . لكنه لا يصح الاستنتاج ان ذلك ينطبق على المصادر الأخرى التي لا تسهل مقابلة ما نقله الكاتب عنها مع اصله . وكل ما يصح استنتاجه ان المقابلة مفيدة .

معظم مادة المقالة مأخوذ عن : ١ ــ كتاب بالالمانية عنوانه « تاريخ المستعمرات الالمانية في فلسطين » لمؤلفه هانْس برُوغَر ، جاء ذكره في الهوامش اكثر من عشرين مرة . وعن ٢ ــ كتاب آخر بالالمانية عنوانه « تاريخ حيفا في العهد العثماني » ، ومقالتين بالانكليزية عن

(1) British Interests in Palestine : 1800 - 1901 (Oxford, 1961), P. 33 ; 44 - 45 .

المستعمرات الألمانيـــة ، لمؤلف اسرائيلي اسمه اَلِكْس كارْمِل ، جاء ذكر مؤلفاته في الهوامش ايضا اكثر من عشرين مرة . وهناك مصدر ثالـــث وهـــو السجلات الألمانيـــة الرسمية التي جاء ذكرها في الهوامش نحـــو عشر مرات . ولكن المأخـــوذ عنها قليل في كميته واهميتـــه .

ولعـــل اعتماد كاتب المقالة اعتماداً كبيرًا على كارمل ، ونقلـــه عن مؤلِّفَيْنِ اسرائيليين آخَرَيْن ، دون نَقْـــد لمـــا نُقِل ، جعل الصورة النهائية للمستعمرات الالمانيـــة غير كاملة ؛ واذكر مثلا واحداً على ذلك ، وهـــو خُلُـــوّ المقاله من ذكر فضل المستعمرين الألمـــان على المستعمرين اليهود في الزراعة . فقـــد حاول بعض اليهود إقامة اول مستعمرة في بِتَاحْ تِقْفَا فأخفقوا ، ثـــم حاولوا ذلك بعد بضع سنوات فنجحوا ، فكـــان بعض الفضل في نجاحهم عائداً الى الألمـــان الذين علَّموا اليهود كيفية ري الارض في مـــاء نهر العوجا بواسطة المضخّات . وهـــذا وغيره مذكور في كتابي باللغـــة الانكليزية « العلاقات البريطانية ـــ العربية ومسألة فلسطين : ١٩١٤ ـــ ١٩٢١ » (٢) .

بعـــد هذا لا بُـــدّ من سؤالين بشأن هوامش المقالة : الاول يتعلق بالهامش رقـــم (٩) الذي ورد فيه لأول مرة ذكر كتاب بالالمانيـــة عنوانه « تاريخ الكنيسة الانجيلية وبعثاتها التبشيرية في فلسطـــين » . ومع ان هذا الكتاب يَـــرِد ذكره مراراً بعد ذلك في الهوامش ، فانه لا ذكر لمؤلفـــه (أو محرره او ناشره) أو مكان طبعه او سنـــة الطبع . والسؤال الثاني هو عن مصير الهوامش ٣٠ ـــ ٣٩ ، فأرقامها موجودة في نص المقالـــة ، ولكن الهوامش العشرة نفسها ضائعة . فيـــا خسارة القارىء .

---

(2) Anglo-Arab Relations and the Question of Palestine : 1914-1921 (Luzac, London, 1977), PP. 16-17; 26-27

تبـدا المقالة بذكر « جمعية الهيكل » الالمانيـة التي اعتقد افرادها بقرب عودة السيد المسيح ، فارادوا الهجرة الـى فلسطين واتخاذهـا وطنا لهـم انتظاراً لتلك العودة . وليت الكاتب ربـط هذه الحركة الالمانية بنظائرها في العالـم البروتستانتي ، وخاصة في انكلتـرا وأمريكا . فقد سبقت طائفة امركية غيرها مـن الطوائف التي اعتقدت بقـرب عـودة السيد المسيح ، فهاجرت الـى فلسطين واقامت في ضاحيه من ضواحـي يافـا عُرفت عند العرب منذ ذلك الوقت « بالمَلَكَـان » تحريفاً عـن « الأمريكان » . ولكن الأمريكان لـم يَثْبُتُوا ، واضطروا لأسباب مختلفة الى بيـع بيوتهم الخشبية التي جلبوها معهم الى الألمـان الذين استقرُّوا في سنة ١٨٦٨ في اول مستعمرة لهـم عند اسفل سفح جبل الكرمل فـي حيفا . فصارت المَلَكَـان ثاني مستعمرة المانيـة بعد حيفا .

واسهب كاتب المقالـة في بحث الاختلافات الدينية بين « جمعيـة الهيكل » والكنيسة الألمانيـة ، كما اسهب في بحث الاختلافات بين زعيمي الجمعية ، حتى انـه لخّص في عدد من الصفحات محتويـات كتبهمـا ، وترجم لكل منهما ترجمة طويلة فبلغ مجموع الترجمتين بحروف صغـيرة ثلاثـة وعشرين سطراً . ورايي انّ الاسهاب في كـل ذلك غير ضروري للبحث الأساسي ، ونشا عنـه شيء من قلّـة التوازن في المقالة ، فما جـاء فيها عن المستعمرات قليـل بالنسبة الى ما جـاء عن المواضيع الجانبية والاستطرادات الكثيرة . فـاذا استثنينا ذلك واقتصرنا على المـادة الأساسية ، فهذه بعض الملاحظات عليها :

١ ــ ص ٦٢ : يقـول الكاتب ان مستعمرة « سارونا » أُسست سنـة ١٨٧١ « على طريق يافـا ــ تل ابيب » . وهذا لا يصح تاريخياً ، لأنّ تـل ابيب لم يكن لها وجود قبل سنة ١٩٠٩ .

٢ ــ ص ٦٤ : ويقــول الكاتب إنّ مستعمرة « وَلْهَــلاَ » أُسست سنة ١٨٩٢ « على طريق يافــا ــ تل أبيب » وهذا مِثْلُ سابقه لا يصح تاريخيـــاً .

٣ ــ ص ٦٤ : يقــول الكاتب ان مستعمرة « وِلْهِلْمــا » تقع الى الشمال الشرقي من اللّــد . والناظر الى الخارطة يرى انهــا واقعة الى الشمال من اللّــد . ولا يقول الكاتب إن هذه المستعمرة أُسست تخليداً لزيارة الامبراطور الألمانــي غليوم الثاني لفلسطين في سنة ١٨٩٨ . والكاتب يذكــر هذا الامبراطور وكذلك الملــك فردرك وليــم وغيرهما بأسمائهم الالمانية . وهذا مشوّش للقارىء العربي الذي لا يعرف اللغــة الالمانية . فالامبراطور معروف عند العــرب في كتبهم ومدارسهم باسم « غليوم الثاني » ، كما هــو معروف عند الانكليز بالامبراطور أو القيصر وليــم الثاني . ولا يقولون عنــه وِلْهِلْــم ابــداً .

٤ ــ ص ٨٣ : والكاتب مخطىء بقولــه إنّ الامبراطور غليوم الثاني زار فلسطين على ظهر بارجة من البوارج الألمانيــة . فالحقيقة انــه جــاء مع الامبراطورة وحاشيتهما على ظهر اليَخْــت الامبراطوري « هُوهِنْزُولِرْن » تحرسهم البوارج الألمانيــة والعثمانية . وتفصيل ذلك موجــود في كتابي باللغــة الانكليزية بعنوان « تاريخ سورية الحديث مشتملا على لبنــان وفلسطين » . وفي هــذا الكتاب ان الامبراطور وَكَــل الى شركة كوك البريطانية تدبير جميــع مــا احتاجته الرحلة بــرّاً من حيفا الى يافــا فالرملة فالقدس ، مــن خِيَــم وأسِرّة واثاث ومطابخ وخــدم . وكان الغرض الأوّل مــن زيارة الامبراطور تدشين الكنيسة الالمانيــة الجديدة التي بنيــت بقرب كنيسة القيامة ، ولكنــه زار الأماكن المقدسة قبل مغــادرة

المدينة مع الامبراطورة والحاشية بقطار خاص الى يافـــا حيث كان اليَخْـــت الامبراطوري في الانتظار (٣) .

٥ ــ ص ٨٥ : لـــم يذكر الكاتب انّ الامبراطورة أَوْغُسْتَه فِكتوريا كانت مع زوجها الامبراطور غليوم ، ولكنه ذكر البنـــاء العليم الـــذي أَقيـــم فيما بعد في القدس تخليـــداً لاسم الامبراطوره . واهـــل القدس يعرفون هذا البنـــاء المشهور على جبل الزيتون ، فهـــو يُشْبه قلعة من قلاع منطقة نهر الرَّاين . وقد تـــم بناؤه قبيل الحرب العالمية الاولـــى ، وصار داراً للحكومة في اول عهـــد الانتـــداب البريطاني ، ووضع الكاتب اسم هذا البنـــاء كاملا باللغة الالمانية ، ولكنه اخطـــأ في تهجئة الاسم الثاني للامبراطورة ، فهذا يُكْتَـــب بحرف "K" لا بحرف "C" كما هـــو في الانكليزية .

وهنـــاك اغلاط في الأَلمانية والفرنسية والانكليزية في نص المقالـــة وفي هوامشها ، بعضها مطبعي وبعضها غـــير ذلك كما يتضح من الامثلة الآتيـــة :

١ ــ ص ٥١ : في نص المقالـــة هاتان الكلمتان (Hof prediger) وترجمها الكاتب « بقسيس البلاط » . ولكنهما في الأَلمانيـــة كلمـــة واحدة وتكتبان معاً كلمة واحـــدة .

٢ ــ ص ٦٣ : ذكـــر الكاتب ان سعر الهكتار الواحد من أرض مستعمرة « سارونا » كان « مئـــة غولد Guld » . والصحيـــح أن تكون غُولْـــدِن : Gulden

(3) A Modern History of Syria including Lebanon and Palestine (Macmillan, London, 1969), PP. 188 - 194

٣ ــ ص ٦٨ : في نص المقالــة هاتان الكلمتان تبــدأ كل منهما بحــرف كبــير (Kolonisations Kasse) وترجمهما الكاتب « بصندوق الاستعمار » . ولكنهما في الالمانيــة كلمة واحدة وتكتبان معــاً كلمــة واحــدة .

٤ ــ ص ٧١ : ذكــر الكاتب في النص « الحزب الوطني الحــر » وكتب اسمه بالالمانيــة هكذا : (Der Nationalliberden Partei) وأداة التعريف هنا خطــأ والواجب أن تكــون Die . امــا الكلمة الاولى بعدها فــلا معنى لها بهذه التهجئة ، والغالــب ان الكاتب أراد ان يكتــب : Nationalliberate

٥ ــ ص ٧٨ : ترجــم الكاتب اللقب الألماني "Graf" بكلمــة « أمــير » . وهذا لا يصح ، فأمير معناها بالالمانيــة Prinz فاذا كان لا بــد من الترجمة فكلمة نبيل قريبة من الأصل الألمانــي . لكن ما المانــع من كتابة « غراف فلان » كما نكتب « لورد فلان » ؟

٦ ــ ص ٨٠ : جــاء في نص المقالــة هاتان الكلمتان الفرنسيتان (وكل منهما تبــدأ بحرف كبير) : Penetration Pacifique . وترجمهمــا الكاتب « بالغزو الاقتصادي » وهذا خطأ ، فمعناهــا « التغلغل الهادىء أو السلمي » . وكــان الواجب ان تكتب الكلمة الاولى هكــذا : pénétration ولا حاجة لحرف كبير في اول كل من الكلمتــين .

وفي الختام لا بــد من ملاحظة بشأن استعمال كلمة « الاستعمــار مقابل (colonisation) ، وكلمــة « المستعمرين » مقابــل (colonists) ، وكلمــة مستعمرة مقابــل (Colony)

فقد اعتاد العرب في فلسطين منـــذ اكثر من نصف قرن استعمال هـــذه الاصطلاحات عند ذكر الألمـــان او اليهود . ولا سبب لتغيير هذا الاصطلاح المألوف ، واصطناع مـــا أوحتْه الدعاية الاسرائيلية لمـــن يكتبون بالعربية تحت ارشادها داخـــل اسرائيل ، فهؤلاء هـــم الذين ادخلوا كلمـــات « الاستيطان » و « المستوطنين » و « المستوطنة » . ولا يخفى مـــا بين المألـــوف والدخيل من فرق في المعنى والمغزى . وقـــد استعمل كاتـــب المقالـــة المألوف من هذه الاصطلاحات اكثر من استعماله الدخيل ، ولا شك أن استعماله الدخيل كان دون وعـــي ، شأنه في ذلك شأن كثير من كتاب العـــرب المحدثين .